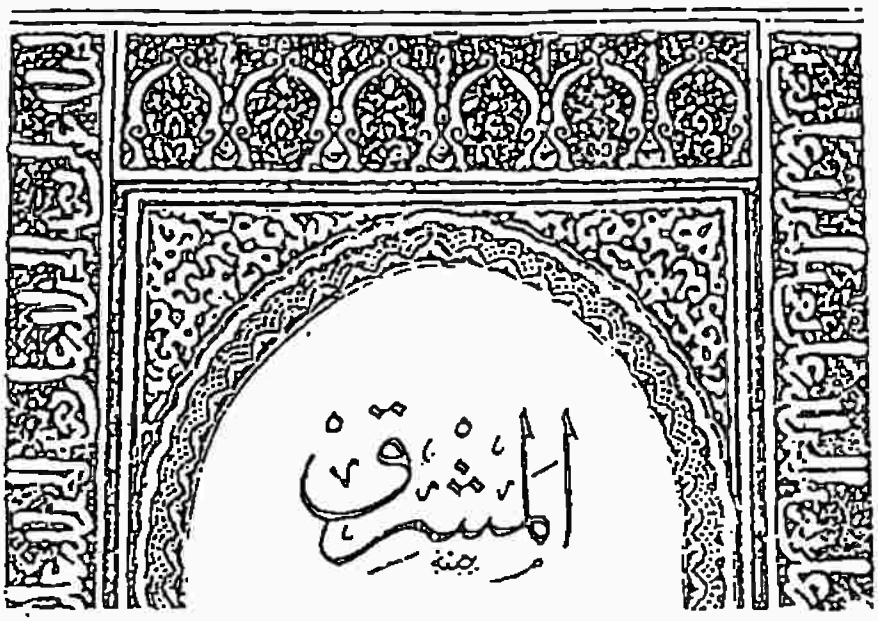

السنة الرابعة والثلاثون
كانون الثاني – اذار ١٩٣٦

الاحابيش
والنظام العسكري في مكة
زمن الهجرة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

١

لم تكن مكة، في الجاهلية، بكونها مدينة تجارة وصنعة يتم بها الرأسماليون والمرابون. بل كانت، فوق ذلك، مركزاً دينياً يؤمه، في المواسم، كثير من القبائل العربية. الا ان مكانها من الحرم كان يجلب اليها[1] عدداً كبيراً من شذاذ القفر الخارجين عن نطاق قبائلهم، من أولئك «الخلعاء» و«الصاليك» و«الفتاك» و«المتشيطنة» و«اللصوص»

١) اليعقوبي: تاريخه (Houtsma) ٢: ١٤–١٥؛ الاغاني ٢١: ٦٢، ٦٨

و«الذؤبان»[1]. ولا يخفى ان تعدّد هذه الاسماء يكفي للدلالة على عدد اولئك الشذّاذ، وعلى ما كان من ضعف في تنظيم السلطة العربية القديمة. وقد اشرنا مراراً[2] الى تلك الطبقة من الشذّاذ الذين كانت قبائلهم «تخلعهم» رسمياً، «فتتبرّأ من جرائرهم»[3]، وتتخلص من تبعة اعمالهم.

من اهم صفات «الخليع» الجرأة والبطش، وانه ليفوق فيهما اشهر ابطال العرب وابعدهم صيتاً من الذين كانوا يتحيّنون الفرص في اظهار شجاعتهم، ويراقبون الاحوال فيستغلّون ظروفها في العمل على نشر مفاعيل سطوتهم وبطشهم؛ كما روي عن عنترة، وهو اوسع ابطال الجاهلية ذكراً، من انه سُئل عن اسباب شهرته فقال: «كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزماً، واحجم اذا رأيت الاحجام حزماً، ولا ادخل موضعاً لا ارى لي منه مخرجاً.»[4]

اما «الخليع» فانه كان على نقيض هذا القول يندفع هاجماً فلا يبالي، ولا يفتش عن المخارج. فكان من تأثير هذه الصفات الجريئة ان الكثيرين من بني قريش، من ارباب الاموال، واصحاب القوافل، لم ينفروا من تكاثر الشذّاذ والخلعاء في ارض الحرم. لانهم كانوا يرون فيهم زبائن ذوي اموال لم يبذلوا الجهد الكثير في تحصيلها، فينفقونها بسهولة في حوانيت مكة. وكانوا يرون فيهم، فوق ذلك، معاونين و«حلفاء»، يستأجرونهم للمحافظة على قوافلهم الغنية في رحلاتها البعيدة[5]. وكان لكل من اسياد مكة جماعة من

---

١) الواقدي: تاريخه (Kremer) ٥٨؛ الطبري ١: ١٤٣٨؛ الاغاني ٨: ٦٥. وقد سمّي هؤلاء اللصوص ذؤبانًا لانهم يشبهون الذئاب (ابن الاثير: النهاية ٢: ٥٢). وهناك «الريل» او «الرئبال» وهو اللص الذي يفتك وحده كالذئب (ابن الاثير ٢: ٦٢) ويذكر بين هؤلاء الذؤبان بعض الصحابة او اصحاب النبي (اسد الغابة ٥: ١٧٨)

٢) اطلب كتابنا *Le Berceau de l'Islam*, I, 193-194

٣) الاغاني ١٣: ٢

٤) الاغاني ٨: ١٥٢، وقول عنترة هذا يعاكس قول عباس بن مرداس (اسد الغابة ٣: ١١٢):

أقاتل في الكتيبة، لا أبالي أفيها كان حتفي ام سواها!

٥) راجع *Berceau*, I, 334؛ الازرقي ٤٦٢؛ الواقدي ٢٠

الشذاذ يتمون اليه ، ويختصون به ، فهو « مأوى المطرد »[1] ، على قول الشعراء ، وهم رجاله وحلفاؤه ؛ فالبرّاد ، وحاجز ، وابو الطمحان ، والحرث ابن ظالم ينذلون نفوسهم في سبيل الامويين ، والمخزوميين ، والهاشميين[2] ، ويلقون الرعب في انحاء الجزيرة بذكر فتكاتهم واهوالهم . وكذلك نرى امراء غسّان ، وملوك الحيرة ، واقيال اليمن يعملون على ان يقرّبوا منهم اولئك الشذاذ فيحسنون صحبتهم ، حتى اذا ارادوا تنفيذ خطة او نصب مهلكة ، قذفوا بهم فكانوا لهم خير عون . وقد رأينا عدداً من سادة القبائل ، اذا احتاجوا الى ذوي جرأة وبطش ، اتوا الحرم فاستأجروا من صادفوا فيه من « الصعاليك »[3] . وهي عادة عهدها ارباب السلطة منذ القدم . أوَ لم يستأجر أبيماك ، بسبعين من الفضة ، « رجالاً بطّالين اشقياء »[4] فتبعوه في غزوته ؟ أوَ لم يستأجر امرؤ القيس « اخلاطاً من شذاذ العرب »[5] في طلبه بثأر ابيه !

اذا دقّق الدارس في اخبار مكة في العصر الجاهلي ثبت لديه ما كان يقوم به القرشيون من محاولات في سبيل توسيع تلك المنطقة الممتازة الواقعة تحت شعار العاطفة الدينية ، المعروفة بالحرم . وذلك ان هذا الامتياز الديني كان يضمن لهم ، على الغالب ، سلامة ارزاقهم ؛ وكان يضع حوانيتهم وبيوت اموالهم على مسافة بعيدة عن جيرانهم من ذوي المطامع الجريئة التي كانت تدفعهم احياناً الى غزوة منطقة الحرم نفسها فينهبون حتى الكعبة[6] . كان اولئك الدور شرّ سكان تهامة يرودون حول الحرم ، كما كانت قريش نفسها قبل ان ترتقي الى مركزها الحالي ، ترود حول تلك المنطقة ، فتؤجر دوابها ، وتسير في خدمة القوافل هادية محافظة ، هذا اذا لم ترابط متسرّة في غورَي

١) زهير (Ahlwardt) ٣ : ٢٤ ؛ الاغاني ١٠ : ٢٨ ، ٣٣

٢) الاغاني ١٢ : ٤٩ ؛ ١٩ : ٧٦

٣) الاغاني ٢١ : ٦٣ ، ٦٨

٤) سفر القضاة ٩ : ٤

٥) الاغاني ٨ : ٦٨—٧٠ ، وفيه (ص ٧٢) ذكر « لذؤبان من قيس »

٦) الاغاني ٨ : ١٨١

تهامة ، منتظرةً مرور القوافل فتهجم عليها وتنهبها . لقد طال عهدها بحياة التشرّد هذه ، فمرن اربابها على الاحتيال والنهب ، حتى اهاب بهم سيد جري هو قُصَيّ فاخرجهم من فرضاهم ، وادخلهم قلب مكة فاقامهم فيها اسيادًا .

لم يكن عهد قريش ببعيد بهذه الحياة . الا ان سادة البطحاء ، واصحاب المصارف الكبرى ، وارباب المضاربات المالية ، كانوا ينفرون من تلك الذكريات ، دون ان يهملوا الحذر ممن حلّ محلهم في مرتفعات تهامة المجدبة ، ولاسيما بنو غفار[1] المتصلون مثلهم بجذع كنانة . ولم نذكر غفارًا ، بين القبائل الضاربة حول الحرم ، الا لانها تمثل خاصة تلك الطوائف الفقيرة الجريئة التي كانت تحتال على الحياة ، في جوار مكة[2] ، بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة . ولم تكن غفار وحدها في تلك المنطقة ، بل هناك قبيلة بني أسلم[3] وهي لا تقل عن الاولى في شيء من الخبث ، والدهاء ، وعدم التحرّج . وكثيرًا ما جمعها اصحاب كتب « الصحيح » ، بل ان النبي نفسه جمعهما في دعائه[4] . وبنو اسلم يمثلون في قبيلة خزاعة ما يمثله بنو غفار في قبيلة كنانة المنافسة ، على فرق ان الخزاعيين تقربوا من النبي ، منذ اول عهده ، نكايةً بالقرشيين منافسيهم وخلفائهم في مكة[5] . ولهذا رأينا ان نذكر منذ الآن غفارًا واسلم[6] ، على ما بينها من عداوة اصيلة[7] . وذلك ان قريش اعتادت ان تختار من هاتين القبيلتين ضباطًا لعسكرها المأجور المعروف باسم « الاحابيش » . على ان هذه العلاقات بقريش ما كانت تمنع افراد القبيلتين عن متابعة مفاسدهم فغزاهم ينهبون ، ويقتلون من يستفردونه من اهل مكة ،

١) الاغاني ١١ : ٤٧

٢) وقد ذُكر بعض الغفاريين في ارض المدينة (الاغاني ٦ : ٣٠) وهناك احد منارهم يرشق نخل الانصار (ابو داود : السنن (طبعة الهند) ١ : ٣٥٩ ؛ الذهبي : الميزان ١ : ٤٥٥)

٣) الاغاني ٢١ : ٦٨

٤) الترمذي : الصحيح (طبعة الهند) ٢ : ٢٢٤ ؛ الطبري ١ : ١٦١٩

٥) لقد انتزع قصيّ الرئاسة من خزاعة ، على انه لم يطردهم من ارض الحرم .

٦) الجاحظ : البخلاء ٢٤٨

٧) حسّان بن ثابت : ديوانه ١٦٠ : ٩ يذكر سُلَيْمًا وغفارًا واسلم

دون ان يستثنوا المسلمين انفسهم[1] ، وهي مآثر قد تمتاز بها غفار على اسلم . اما الاوتار بين افراد القبيلتين ، بدواً وحضراً ، فكانت دائمة كلما انقضى وتر منها تجدد آخر[2]. وكان الغفاريون مشهورين بالتلصص ونهب المسافرين حتى الحجاج منهم ، فسترا « سُرّاق الحجيج »[3] ، يغطون ذلك فلا يحترمون ارض الحرم ولا اشهُره. وكانوا يتزلون منطقة بدر[4] وارض فُرع[5]، فيجتمعون شذاذاً من السراق والفسّاك[6] ، يمرقلون سير القوافل ، ويغيرون على تجار مكة آمالهم ومساعيهم . وقد ظلّ البرّاد مثالاً اعلى لاولئك الخلعاء الغارّين ؛ يقوم بمغامراته خفيةً ثم ينشرها في انحاء الجزيرة بكل ما تقتضيه شروط التمثيل المسرحي من ظهور وافتخار . حتى ضجّ القرشيون من اعماله فاستلحقه بنو امية وجعلوه حليفاً لهم ، وانزلوه مكة . بيد انه لم يفارق ما شبّ عليه من اعمال النهب والسلب ، فعاد القرشيون الى التذمّر منه . فترك المدينة دون ان يترك حلف الامويين. ثم علقت الاسطورة بمغامراته وما اتصفت به من جرأة وحيلة وبطش ، فتوسعت فيها ، وولدت منها آثاراً أضيفت في ما بعد الى المجاميع الادبية المختصة « باللصوص ».[7]

واذا ذكرنا بني غفار وبني اسلم فاننا لا ننفي وجود الخلعاء في سائر القبائل والبطون . فلكل قبيلة ، شريفة كانت او حقيرة ، لصوصها وخلعاؤها تدفعهم فطرتهم الفوضوية الى الخروج عن الانظمة والشرائع. حتى انه ليصعب علينا ، اذا ما دققنا البحث في حياة كبار السادة انفسهم كحاتم طيء ،

---

١) الواقدي ٢١ ؛ ابن هشام: سيرة الرسول ٤٢١ ؛ اسد الغابة ٢ : ٣٣٥

٢) ابن هشام: السيرة ٤٢١

٣) الطبري ١ : ١٦٣٠، ١٦٥٠ ؛ الاغاني ١٦ : ٦٣ ؛ ابن هشام : السيرة ٨٠٢ ؛ اسد الغابة ٣ : ١٥٠ .

٤) السمهودي: وفاء الوفاء ٣ : ٢٥٦

٥) السمهودي: وفاء الوفاء ٣ : ٢٦٠

٦) مسلم: الصحيح ٣ : ٢٦٧-٢٦٨ ؛ ابن سعد: الطبقات ٤ : ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤

٧) الاغاني ١٩ : ٧٥-٧٦ ؛ والطب ابن عبد ربه : العقد ٣ : ٩٣ ؛ ابن هشام : السيرة ١١٨-١١٩

وعروة بن الورد ، وتوبة بن الحُمَيِّر ، ان نميّز في شخصياتهم اخلاق الفارس الكريم من صفات اللص الصعلوك ؛ كما انه يصعب علينا ان نفصل ، في تلك الحروب العربية ، بين الغزوة المشروعة في نظر البدو ، والسرقة البسيطة . ولم يكن هذا الجمع بين صفات الفروسية ومظاهر الصعلكة ليجحف بحقّ اولئك السادة ، او يحطّ من قدرهم في نظر السلف[1] . فان شريعة الغفر ما كانت تعصم هذه الاعمال بالوصمة الشائنة ، بل جلّ ما كان ينال الصعلوك تعرّضه للخطر ، وتعريضه قبيلته للثأر بعض الاحيان . اما ما سوى ذلك من عار او احتقار فلا وجود له . وكثيرًا ما كان الشعراء من اولئك الصعاليك يفتخرون ، بكل اخلاص ، بانهم يرتون ، كما عاشوا ، على سُنّة الآباء والشرف[2] . ولم يرتفع صوت واحد منهم فيخرجهم من غرورهم وادّعائهم . اما الفرق بين الغزوة والسرقة فهو ان الغزوة كانت شرطًا من شروط الحياة البدوية ، بل هي صناعة وطنية في ذلك القفر[3] ، لا يُلام عليها الا اذا خرجت عن كونها عمل الجمهور فانفرد بها واحد او اثنان في سبيل منفعة خاصة لا تهمّ القبيلة بجملها . على انه ، حتى في هذه الحالة الخاصة ، لم يكن البدو ليخفوا اعجابهم باعمال الصعاليك الجريئة ، وخصوصاً بجيلهم الغريبة . وكثيرًا ما كان الصعاليك يتّحدون فيؤلفون جمية من اللصوص لا تقف في وجهها العقبات ، كما نرى في بني غفار نفسها ، وقد ساعدهم في اعمالهم هذه ان بلادهم كانت على ممرّ القبائل من مكة الى الشام[4] . والاغرب ان سادة هذه القبيلة لم ينكروا بخلع هؤلاء الصعاليك[5] . حتى عُرفت قبيلتهم بهذا ، ورأى بعض الشرّاح انهم

---

١) *Le Berceau...* I, 191 etc.

٢) الاغاني ١١ : ٤٥ ؛ *Berceau*, I, 159

٣) *Berceau*, I, 177

٤) أسد الغابة ٥ : ١٨٧ ؛ وفيها ان غفارًا كانت تنزل في مَرّج ، متوسط الطريق بين مكة والمدينة (٥ : ١٤٢) ؛ وفي الكتاب نفسه ان بني اسلم كانوا يترلون ذاك المترل (٥ : ١٤٣)

٥) بل قد يفتخرون جم كما قالوا ، وقد رأوا رجلًا مجهولًا لا يحترم الكعبة : « ما اخلق ان يكون من بني بكر ! » (اسد الغابة ٣ : ١٥٠) . اما النسبة ببني بكر فان غفارًا كثيرًا ما دُعيت « بكر بن عبد مناة »

هم المقصودون بجملات القرآن على البدو في مثل الآية : « وممن حولكم من الاعراب منافقون . »[1] فاذا صحّ هذا الشرح ، كانت هذه الآيات ترقى الى عهد كانت غفار لا تزال على حلف قُريش تخدمها في صفوف الاحابيش . ولكن لم يكن العهد بعيدًا بيوم يُغدق فيه النبي الدعوات والبركات عليها، وعلى منافستها قبيلة بني أسلم .

واننا نفهم الآن لماذا كان يتردّد الغفاريون في ذكر نسبهم امام اهل مكة، وقد سبق ان آذرهم بنهب اموالهم . وقد كان يجتنب ذكر هذا النسب حتى مَن يُقبل على الاسلام من الغفاريين ، وكأنهم يستحيون من ذكره امام النبي نفسه ، كما حصل لابي ذرّ عندما التحق بالنبي ؛ فقال بعد ذلك : « كره اني انتسبت الى غفار »[2] . وكان ابو ذرّ ، اول امره ، من اولئك الصاليك . ثم قدّسه الاسلام ، واتخذته الشيعة خاصة من اوليائها[3] . بيد ان الغفاريين ادّوا خدمات جليلة للنبي ، فوجب على كتب الحديث ان تدوّن مناقبهم[4] - وقد اكتفى النبي ، في عقابهم على سيئاتهم المديدة ، بان اظهر اسفه[5] ، طالبًا من الله ان يعفوا عن هذه السيئات ، مستندًا الى الاشتقاق البياني مقابلًا بين اسم القبيلة « غفار » وفعل الغفران ، قائلًا : « غفار غفرها الله ! »[6] ولا يخفى ان

---

١) القرآن ٩ : ١٠١ ؛ راجع الواحدي : اسباب النزول ١٦٤ ؛ الطبري ١ : ١٦١٩ ؛ ابن هشام : السيرة ٨٩٦ ، ٩٢٧

٢) ابن حنبل : المُسند ٥ : ١٧٥

٣) ابن سعد : الطبقات ٤ : ١٦٣ ؛ اسد الغابة ٥ : ١٨٧-١٨٨ ؛ مظهر المقدسي (Huart) ٥ : ٩٢

٤) مسلم : الكتاب المذكور في الموضع المذكور ؛ ابن حنبل : المسند ٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٩ ، ٤٣٠ ، ٤ : ٥٥ ، ٥٧ ؛ الدارمي : المسند (مخطوطة ليدن) ٢١٣-٢١٤ ؛ البخاري : الصحيح ٢ : ١٩١-١٩٢ ؛ الترمذي : الصحيح (طبعة الهند) ٣ : ٢٢٣-٢٢٤ ؛ ابن الدَّيْبَع : تيسير الاصول ٣ : ١٠١ ؛ وقابل بما ورد في السيوطي : موضوعات ١ : ٧٥

٥) ابن سعد : الطبقات ٤ : ١٦٤ ؛ ويدعى بنو غفار « بكر بن عبد مناة » ، كما قدمنا، الاغاني ١٩ : ٧٤-٧٦

٦) اسد الغابة ٣ : ١٧٨ ، ٢٦٨ . . . مسلم : الصحيح ١ : ٢٥٤ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٦٥ ؛ ٤ : ٢٢٢

حاجته الى من يتكل عليهم في مقاومة اعدائه دعت به الى التسامح والتجاوز عن مساوئ رجاله[1]، فضلاً من كون الاسلام «يجبّ ما كان قبله» اي يمحو ما تقدّمه من السيئات[2]. فعمل على استجلاب شذّاذ الغاريّين، عاهدًا اليهم بقيادة الغزوات المخطرة، تلك التي كان يخشى من السير فيها بعض الصحابة من قريش[3]. ذلك ان النبي، وهو القرشي، لم يكن لينسى شجاعة هؤلاء الشذّاذ وتفوّقهم الحربي على المهاجرين من التجار والسماسرة الذين اقتلعتهم الهجرة من حوانيتهم ومصارفهم في مكة. وفي اثناء تغيّباته عن المدينة، كان يعهد للغاريين ايضاً[4] في السهر على نظام العاصمة الجديدة، او في غير ذلك من الشؤون[5] مهما كان منهم احد خدمه[6]. على انه لم يكن يهمل مراقبتهم والحذر منهم احياناً[7].

***

اما وقد تحقّقنا صفات الغاريين هذه، فسهل علينا ان نفهم رغبة اهل مكة في جذبهم الى حلفهم، واسراعهم الى الاحتفاظ بهؤلاء الجيران المندفعين الى النهب[8]، المخطرين رغبةً في الاقتناد، حتى انهم كثيرًا ما ازعجوا القائمين

١) اطلب بحثنا في *Ziād ibn Abīhi*. 3، وفي *Mo'āwia*, 423؛ وابن حنبل: المسند ٤: ٧٤

٢) اسد الغابة ٥: ٥٤، ابن هشام: السيرة ٧١٧-٧١٨

٣) الطبري ١: ١٥٧٥

٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٤٤، ٧٧، ٨٧. وذلك لانهم، وهم من كنانة، كانوا ابعد من ان يتحدروا مع العناصر الوطنية او تلك العناصر المضطربة المتذبذبة في المدينة، قابل بما في اسد الغابة ٤: ٢٥٠؛ وقد ذُكر ابو ذرّ بين اولئك الغفّارين (الطبري ١: ١٦٢٧)؛ ابن هشام: السيرة ٥٤٠، ٦٦٢، ٦٦٨، ٧٢٥، ٩٠٥، ٩٦٦

٥) ابن هشام ٧١٦، ٧١٩

٦) اسد الغابة ٥: ٧٧

٧) قابل بما في اسد الغابة ٤: ١٢٧؛ وفي مصدر آخر ان بعض الغفاريين حضروا يوم بدر حضور الشاهدين المنتظرين غاية العراك ليسلبوا المنهزمين (اسد الغابة ٥: ٢٦٠). على ان غيرهم من السيد الغاريين كانوا يحاربون مع النبي في بدر (اسد الغابة ٤: ٢٣٨؛ ابن الاثير: النهاية ٣: ٩٦)

٨) جاء في اسد الغابة (٣: ١٩)، ان اخت ابي سفيان كانت زوجةً لسيّد غفاري من حلفاء قريش.

بسوق عكاظ[1] . فوجب من ثَمَّ ان يعمل القرشيّون على صرف هذا النشاط وتسيير تلك القوة الى ما فيه مصلحتهم والدفاع عن منافعهم السياسية والتجارية. وهكذا نشأت فكرة استخدام اولئك البدو ، بدو تهامة ، سواء أكانوا ينتمون الى كنانة او الى خزاعة . فجعل القرشيون يختارون منهم عددًا من العسكر المأجور ألف النواة الاولى ، او الضباط الموظفين او « اركان الحرب »، كما نقول اليوم ، في ذاك الجيش من « الاحابيش » المتصف بالشهرة الواسعة في « المغازي » ، او حروب محمد . ولما تمَّ ملاك الجيش الخارجي باولئك البدو المأجورين ، عمد بنو قريش الى تعبئة اقسامه بعدد من الافريقيين النازلين مكة[2] . وقد كان من تقاليد العرب ان يستخدموا ، عند الحاجة ، من كان يرتزق في بلادهم من الافريقيين عبيدًا كانوا ام فعلةً ومهنةً ؛ وذلك لما عُرف من شجاعتهم ، وجلدهم ، وطاعتهم . حتى ان سادة القبائل الحجازية ، و« ملوك العرب » ، كانوا يؤلفون من اولئك الحبشان حرسهم الخاصّ . وهذا ابن سعد يذكر عن احد سادة هذيل انه كان « يمشي وراءه الاحابيش »[3] . وليس من شك في ان هؤلاء « الاحابيش » من سودان افريقية ، لا من العرب احلاف بني قريش . وهذا صاحب الاغاني يذكر ان الملك سيف بن ذي يَزَن قد استخدم في جيشه رجال أبرهة ، بعد تلك الغزوة الاكسومية التاعسة[4] . ومهما يكن من خطر في اتخاذ هؤلاء العساكر ، فان خبراء العرب بالشؤون الحربية كانوا يفضلون السودان لحسن طاعتهم[5] على رجال البدو النافرين من كل نظام ، الرافضين الحرب الا اذا كانت منفعة قبيلتهم الخاصة تدعو اليها .

---

١) الاغاني ١٩ : ٧٤ ؛ العقد ٣ : ٦١ ، وان العشرة الاميال المذكورة في الصفحة ٦٢ ، السطر الاول ، لا تمثل المسافة بين عكاظ والطائف ، كما يتوهم المؤلف ، بل هي طول سوق عكاظ .

٢) الاغاني ١ : ٥٢ ؛ الطبري ١ : ١٦٢٠

٣) ابن سعد : الطبقات ٢ : ٢٦

٤) الاغاني (طبعة صالحاني) ٢ : ٥٢ ؛ وقابل بالاغاني ١١ : ١٢٢ ، ١٦ : ٧٥ ؛ الجاحظ : البخلاء ؛ ٢٤١ H. Grimme, *Mohammed* (1904) p. 7

٥) الجاحظ : رسائله الثلاث (طبعة Van Vloten) ٦٥ : ٦٦

وفي عصرنا هذا لا يزال افراد الجيش ، في حضرموت ، من المستعبَدين[1]

واذًا فقد كان ابناء جبال الحبشة ، قبيل الهجرة ، رجال الجيش وافراد الشرطة في بلاد العرب . ولم تكن من صفاتهم الغالبة الامانة والاخلاص ، بل قد يرتدون على ساداتهم ويقتلونهم[2] . على انهم كانوا يتصفون بالشجاعة الجريئة ، والمزء بالخطر ، والخضوع للنظام . وهي صفات اختصّ بها عنصرهم على ممرّ الاجيال[3] . وكان من حقّ العرب ان يعجبوا بها وهي قليلة في ما بينهم . حتى غدا اشجع العرب ، واجرأهم ، وافتكهم ، اولئك الابطال من ذوي الدم المختلط بالدم الحبشي او السوداني[4] ، الذين دعوا بحقّ « اغربة العرب » ، وكان اشهرهم عنترة بلا خلاف . وليس بعيدًا ان يكون لبيد قد اشار الى هذا الحرس الافريقي في قوله :

. . . حُبُشًا قيامًا بالحراب وبالالِ (٥

ولابن ذئبة ، احد شعراء تقيف من غير المشهورين ، ابيات يشهد فيها بتذكار ما تركه في مخيلة ساكني جبل سراة والحجاز مرور الحبشيين ظافرين في سهول تهامة ، وقد دخلوا بلاد اليمن واخضعوها ، قال[6] :

---

١) Snouck Hurgronje dans *Zeitschr. f. Assyr.* XXVI, 223, 236, n. 3

٢) الاغاني ١٦ : ٧٥ ؛ اسد الغابة ٥ : ٥٢٠

٣) وقد استخدم علي بك الكبير هذه الصفات ، فجيّش في مصر أيالات من السودان (راجع de Vogüé, *Hist. orientales*, 177) وكذلك الكلام عن الجيش المصري قبل محمد علي وبعده (الطب J. Maspero, *Organisation de l'Égypte byzantine*, 64)

٤) الجاحظ : رسائله ٦٥ – ٦٦ ، وكل رسالته المنونة : « كتاب فخر السودان على البيضان » في المجموعة المذكورة ، ص ٥٧ . . . ؛ الاغاني ٧ : ١٥٠ ؛ البلاذري : الانساب *Berceau* I, 192 ؛ ٢٠٦-٢٠٧ (Ahlwardt)

٥) الجاحظ : الكتاب المذكور ٧٠

٦) ابن هشام : السيرة ٣٧ ؛ الطبري ١ : ١٣٦ ؛ Noeldeke, *Perser-Araber*, 194 وفيا خصّ الشاعر ذا جَدَن يقول نولدكه : « يظهر ان الشاعر يرى ما يراه الحديث التقليدي بالنثر » ، قلت : ولا غرابة في الامر فان الحديث جرى هنا ايضًا على طريقته المعروفة ، فاستقى معلوماته من الشعر . ولعلنا نوفق يومًا الى اقرار هذا المبدأ الاساسي في نقد « السيرة » و « الحديث » .

ابد قباتل من حمير ، أبيدوا صباحاً ، بذات البَرْ
بألف الوف وخُزَّابة كنبل السماء قُبيل المَطَرْ
يُسمّ صباحهم المقربات ، يفنون من قاتلوا بالزَّفَرْ
سالى كمثل عديد التراب ، يبيس منهم رطاب الشجَرْ

ولم يكن النبي ، وقد اصبح امير المدينة ، ليخرج عن هذه العادة . فكان عنده من « الاحابيش » بلال ، واخوه ابو رويحة[1] — وهي كنية بعيدة الدلالة — وكان بلال يشي امامه مستلّاً سيفه . على ان الاخوين لم يكونا الوحيدين من بني جلدتهما في بلاط يَثرب . فقد اشار المحدّثون الى وجود غيرهما من الحبش في حاشية النبي ، حتى انهم ذكروا من هؤلاء اخا النجاشي نفسه[2] . وقد اهتمت « السيرة » ببلال اهتماماً خاصاً ، لانها رأت فيه « سابق الحبشة » ، كما تسميه تراجم الصحابيين[3] ، اي السابق من رجال الحبشة

---

١) اسد الغابة ٢ : ٨٧ . وهناك ابو رويحة آخر ، من العرب ، وعد صاحب « اسد الغابة » (٣ : ٢٠٠) بان يتكلم عنه في باب « الكُنى » من المجلد الخامس . وقد قام بوعده فوق المنصود (٥ : ١١٥-١١٦) اذ جعل من ابي رويحة الواحد رجلين اثنين تكلم عن كل منهما . على ان احدهما مثل ، دون شك ، دوراً حربياً لا بأس به ، فعهد اليه النبي في حمل الراية (٥ : ١١٦) . وفي المجلد الخامس قسم من « اسد الغابة » بعض الصحابة ازدوج عددهم فولّد كل واحد منهم صحابيّين ، وذلك في الصفحات ٥٨ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٧-٨٨ ، ١١١ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٥-١٢٦ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ؛ وكذلك في الجزء الثالث في الصفحات ٢١٦ ، ٢٣٠٨ ، ٢٢٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢ ، ٢٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٢ ، ٤١٧ . . . بل هناك من الصحابة من تثلّث عددهم فولّد الواحد ثلاثة صحابيين كما نرى في المجلد الثالث ص ٢٠٢ ، ٢٩٧ ؛ والمجلد الخامس ، ص ١٤٨ . على ان ابن الاثير شعر بشيء من هذه الازدواجات والتعدّدات ، فشكّ في حقيقتها ، او اشار اليها صراحة كما في ٣ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩-٣٠ ، ٤٥-٤٦ ، ٥٧-٥٨ ، ٩٢-٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩-١٠٠ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ فقال ان الالتباس بين « الاب » و« الابن » هو على تكثير الصحابة ٣ : ١٦٥ ، ٢٨٨ ، وفي هذه الصفحة ذكر لصحابي وهمي لم يوجد . وفي ٥ : ٥٠ — ٥١ ذكر لصحابي من الجنّ . . .

٢) راجع في ما تقدم اسد الغابة ٣ : ٣٦ ؛ ٥ : ٢٨٦ ؛ ابن حنبل : المسند ٤ : ٩٠ ؛ ابو يوسف : الخراج ١١٩ ؛ وكتابنا في *Fatima* . 66, 69 — وقد ورد ذكر عدد من السودان في حرس بعض الاسر المكية الكبيرة (اسد الغابة ٤ : ٢٥٢)

٣) اطلب ترجمته في اسد الغابة لابن الاثير ، وفي الاصابة لابن حجر

الى الدين بالاسلام . ثم صار بلال ، بعد ذلك ، في نظر ارباب الحديث ، مثالاً لجميع المؤذنين، اولئك الاشخاص ذوي المركز المتضع في الجماعة الاسلامية وذوي الفائدة الجمة اذ يدعون المؤمنين الى الصلاة . بيد ان هذه النزعة في اصحاب الحديث لاظهار بلال على هاتين الصورتين قد اهملت ، دون شك ، كثيراً من المعلومات عن بلال الحبشي فافسدت ما كان من الممكن ان نستخلصه عن دور بلال في حاشية النبي قائماً بما كان يقوم به امثاله من الاحابيش في حاشيات سراة القوم من القرشيين. ولعلنا كنا نوفقنا الى وجود نظام «للاحابيش» في المدينة ، كما وجدنا نظاماً لهم في مكة[1].

كان المكيون يتخيرون رجال شرطتهم من جمهور بدو تهامة ، وعبدان افريقية ، فيؤلفون القوة العسكرية المدافعة عن تلك الجمهورية التجارية . وكان الغفاريون كثيراً ما يتولون قيادة تلك القوة فيكون الملاك او اطار الجيش منهم، اما المادة فمن « الاحابيش »[2] . وليس في هذا الجيش المأجور من العناصر الوطنية المكية ما يستحق الذكر . ذلك ان قريش كانت قبيلة قليلة العدد حتى انها لم تكن لتحتل منطقة الحرم بكاملها . فكانت كلها تنزل وادي الكعبة الضيق[3] . ولا نرى ان عدد القرشيين ازداد منذ ان ترك اجدادهم حياة البداوة ، فتحضروا في مكة . بل اننا ، لولا من كانوا يستلحقونهم بهم من الحلفاء ، لتحققنا نقص عددهم الاصلي . ولا يخفى ان مرافق الحياة في ذاك الوادي ، وادي الغور ، الضيق المعرض دائماً للفح السموم ، الخالي من الماء ، ومن الهواء اللطيف ، ومن الشجر — حتى نعته القرآن بانه « غير ذي زرع »[4] — كانت ابعد من ان تسهل النمو الطبيعي في حياة شعب حضري.

١) قابل بما سنورده ادناه من ان النبي استقبل بغفارة عدداً من سودان مكة . وهناك غيرهم من السودان كانوا يرافقونه ملتحقين في غزواته (ابن سعد : الطبقات ٣ : ٩٠)

٢) في الاغاني ١٩ : ٧٦ ذكر لاسد الغفاريين سيد الاحابيش. وفي اميل الى الرأي بان الغفاريين الذين قادوا رجال النبي في المدينة ، كانوا اولاً من سادة احابيش مكة . .

٣) قابل بما في ابن هشام : السيرة ٧٣ ، وهو يشرح اسم « بكة » بما كان فيها من الازدحام .

٤) « وادٍ غير ذي زرع » القرآن ١٤ : ٤٠ . وقد طلب القرشيون آيةً على صحة نبوة

ولهذا لم يوافق نمو القبيلة ازدهارها الاقتصادي العجيب ، فكان بعض كبارها يتذمرون من مناخ مكة ، فيقولون ما قاله صفوان بن امية وزملاؤه من رجال « الملأ » او مجلس الشورى القرشي : « ليس لنا بها مقام »[1] هذا على الرغم من انهم كانوا يتمتعون بالراحة المستطيلة مدة الصيف في قصورهم البهجة في الطائف[2] وجبل سراة .

وعليه فقد اضطرت مكة الى استخدام المأجورين في سبيل المحافظة على الامن الداخلي ، والدفاع عن منافعها التجارية ، وان تعرضت احياناً الى مخاطر سياسية كان تتخلص منها بالدهاء والحيلة . وفضلاً عن ذلك ، فان اولئك المأجورين من الشذاذ والفتاك والحلفاء والقصوص والاحابيش اللاجئين الى ضواحي مكة او «الظواهر» كانوا يفوقون بما لا يُقاس رجال قريش ، « قريش البطحاء » او « قريش الوادي » ، اي سكان وسط المدينة من السراة ، رباطة جأش ، وشجاعةً ، وجرأةً . ولنا شاهد في يوم بدر ، وقد انتصر فلاحو المدينة على القرشيين على رغم الزيادة في عدد هؤلاء ، والتفوق في تسلحهم ، وذلك لان القرشيين لم ينتظروا تنظيم الاحابيش .

***

يدفعنا كل ما تقدم ، وما سيلي ، الى الاقرار ان البدر لم يكونوا يعتبرون في شيء شجاعة القرشيين . ولم يشأ شعراء الجاهلية ان يجهل ذلك . وهو رأي جدير بان نقف قليلاً في تفهُّمه ، وقد يكون منه فائدة في تمحيص تلك الاساطير المتعددة التي حاكتها المخيلات حول ابطال « المغازي » ، اذا توفقنا يوماً الى درس القسم الحربي في سيرة الرسول[3] .

وقد اثار هذا المشكل احدُ مترجمي النبي من الاوربيين ، في سيرة كتبها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ؛ وجرب ان يحله بشرح رأينا ان نورده

محمد ان يوجد لهم غيلاً وجناتٍ (القرآن ١٧ : ٩٣ ؛ وراجع اسد الغابة ٣ : ١١٨) واطلب شهادة القديس يوحنا الدمشقي الموردة في *Zeitschr. für Assyriol.* XXVI, 182

١) الواقدي ١١٦

٢) راجع كتابنا في *Tāif à la veille de l'hégire*, chap. III, 45 sqq.

٣) اطلب الجزء الثاني من طبقات ابن سعد ، وهو مختص بالمغازي .

على طوله ، قال: « قد يبدو غريباً ان يكون العرب، ولاسيما المكيّين منهم ، التارقين بالشؤون التجارية ، قد ظهروا دائماً على قسط من الشجاعة والميل الى الحرب . ولا يخفى ان شعباً دائم الاهتمام بكنز الاموال لجدير بان يعرض عن ذاك المجد الذي يوليه الرأي العام حملة الاسلحة . ولكن التجارة في بلاد العرب كانت مرتبطة بمهنة الحرب . كان لا بدّ من اجتياز المفازات المقفرة . . . يعيث فيها الشذّاذ فينهبون المسافرين . . . فوجب الاستعداد الدائم للهجوم او للدفاع ، لنهب القوافل او للمحافظة عليها . وهكذا غدت حياة العرب حالةَ حرب دائمة ، فألفوا المخاطر ، وكان لهم ما يعزّز شجاعتهم القومية »[1].

هذا ما حاول تورّبن ان يشرح به تلك الشجاعة المنسوبة للمكيّين . وهو يظهر طبيعيًّا لاول وهلة ، حتى اننا لا نكاد نتردّد في اثباته لو لم يكن هناك ، قبل تأليف « السيرة » ، وخارجاً عنها ، تقليد ادبي شعري يناقض هذه النظرية المتأخرة المنشأ . وقد كنا تجرّأنا على الشك في صحة هذه النظرية ، اذ عرضنا لتلك الاعمال البطولية الجبّارة المنسوبة لعليّ بن ابي طالب، ولحمزة[2]. فردّ علينا المرحوم كليمان هوار قائلًا : « ان اولئك العرب كلهم ، حضرًا كانوا او بدوًا ، كانوا يولدون رجالَ حرب »[3]. والحال ان هؤلاء البدو انفسهم يعلنون ، بلسان منشديهم وشعرائهم ، اعراضهم عن تلك الاناشيد المأتمية التي تُردّد على قبور الابطال ، ونفورهم من ان يكونوا في تلك القبور . ذلك انهم مهما يبالغ النساء في الندب والبكاء ، ومهما يردّدن « لا تبعد ! » ، فلن تلك الاناشيد لا « تعيد البطل الى الحياة »[4].

اما قبيلة قريش الحضرية فقد اهتمّت شديد الاهتمام بان تؤيد شهرتها ، فتحمي نفسها، بعدد من الاقوال والوصايا منسوبة للنبي[5]. ويراها المطالع مبسوطة

---

١) Turpin, *Histoire de la vie de Mahomet*, Paris, 1773, I, 304-305

٢) راجع كتابَينا في *Fâtima*, 29 ; *Berceau*, I, 191..., 332, 334

٣) *Journ. Asiat.*, 1913', 216 وهي حجة تورّبن المذكورة سابقًا .

٤) اطلب في ذلك Rhodokanakis, *Al-Hansâ' und ihre Trauerlieder*, 58

٥) راجع مثلًا: ابن الديبع : تيسير الوصول، ٣ : ١٠٨ ، ١١٠ ؛ ابن سعد : الطبقات ٣ : ٥

في كتب « الصحيح » ، « والسُنن » وكلها تنطق بيقظة الخلافة العباسية ، وغيرتها على حفظ هذه الشهرة السائرة . وان يكن وصل الينا شيء من الشعر البدوي القديم يناقض هذه الشهرة[1] ، فلا شك في ان ذلك من نتائج الصدفة التي ابعدته عن عيون المراقبة العباسية . فعرفنا ، بالاستناد الى هذا القليل من الشعر ، ان البدو كانوا ينظرون الى قريش غير نظرة جُمّاع الاحاديث . كانوا يرون في قريش تجّاراً لا همّ لهم الا جمع المال والاكثار من الارباح ، وهم ما عدا ذلك ، جبناء لا يجرأون على تسيير قوافلهم الا اذا دفعوا لبعض سادة القفر مبلغاً من المال في سبيل خفارة تلك القوافل[2] ، فتسير آمنةً « بما فيها من الحُماة والحُفراء »[3] . ثم ان البدو كانوا ينفرون من الاقامة بمكة ، لانها كانت تمثل لهم مكاناً لا راحة فيه ،

ولا مرتع للبين ، او متنفّس ؛ ولكنّ تجرّا ، والتجارة تُحقرُ !(٤)

وهم يفتخرون احياناً بانهم يفلّقون جماجم اولئك التجار ، ويشقّون زقاق خمورهم ، فينتقمون لانفسهم او لاديانهم ، وقد اجحف القرشيون بحقهم ، في تلك الايام العصيبة التي كانوا يلجأون بها الى مكة فيقفون على ابواب المصارف القرشية يطلبون قليلاً من المال على سبيل القرض[5] . فكان لا بدّ من اخذ الثأر ، ومن ان ينتصر البدو لانفسهم من اولئك التجار الذين اهانوهم فآلموا كبرياءهم . ولهذا كانوا ينتظرونهم خارج مكة ، فيهاجمونهم على رغم ما كان

١) كذلك الشعر الذي حذفه ابن هشام ، عندما اعاد النظر في « السيرة » ، ص ٥٢٣

٢) وهو امر لا بدّ منه . اطلب العقد ٣ : ٩١ ؛ الاغاني ١٩ : ٢٥ – حتى ان محمداً يذكر من العجائب انه يأتي يوم تسير فيه المرأة بلا خفير ، اسد الغابة ٣ : ٢٦٣

٣) الجاحظ : رسائله ٦٦ ؛ العقد ٢ : ٨٠ – واطلب ، في شجاعة المكيين ، الاسانيد العديدة التي يوردها Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 31, 32 . حتى ان القرشيين تركوا النزو لما كان يرضّهم له من السرقة والنصب . . . السيرة الحلبية ١ : ٢٢٣

٤) الجاحظ : رسائله ٦٣ . وبقول الطبري في تفسيره ٣٠ : ١٧٣ ، عارضاً للسورة ١٠٦ من القرآن ، ان البدو كانوا لا يتعرّضون لقوافل قريش . وهذا من تأثير تلك النظرية الرسمية الرامية الى اقرار السيادة القرشية حتى في العصر الجاهلي . . .

٥) راجع كتابنا في *La Mecque à la veille de l'hégire*

يطلقه القرشيون على انفسهم من طلا الشجر ليموّهوا على الناس انهم حجّاج فلا يتعرّضوا لهم. ذلك ما نستنتجه من قول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهلي:

وزنِ سبات لذي شَجرٍ أُسَيْود كالرجل الاسحم
ضربت بفيه على غره ، وقائمه كيد الاجذم
الى التاجر العربيّ الشجيع او غر ذي النُطف الطعلم [1]

ومن شرح الجاحظ : « اراد بهذا كله قريش . يقول هم تجار ، وقد اعتصموا بالبيت ، واذا خرجوا علّقوا عليهم المُقل وطلا الشجر حتى يعرفوا فلا يقتلهم احد »[2] . وكان البدو ، اذا اكتشفوا هذه الحيلة ، تزداد نقمتهم على أكلة « السخينة » ، والسخينة نوع من الطعام يُتخذ من الدقيق ويؤكل في شدّة الدهر وغلاء السعر ، وكانت قريش تأكله فعيّرت به وهُجيت[3] ، حتى لُقّبت « بالسخينة » قال خداش بن زهير :

يا شدّة ما شددنا ، غيرَ كاذبةٍ على سخينة ، لولا الليلُ والحَرَمُ

وقال عبد الله بن همام :

اذ لضربتهم حتى يعودوا لمكة يطلبون بها السخينا [4]

واننا لنسمع صدى هذا اللقب ، خمسين سنة بعد الهجرة ، في اهجية مرّة للنجاشي لذع فيها القرشيين، حتى ان ابن قتيبة، المتعصب للعروبة زمن العباسيين، لم يغفر له هذه الجرأة ، فقال عند ذكره : « هجا قريشاً لعنه الله ! »[5] . اما الابيات فمنها :

سخينةُ حيّ يعرف الناسُ لؤمَها قديماً ، ولم تُعرف بمجدٍ ولا كرَمِ
فيا ضبة الدنيا ، وضبة اهلها ، اذا ولي الملك التنابلة الخُدَم

---

١) الجاحظ : رسائله ٦٢ ؛ البكري : المعجم ٦١٦ ؛ الازرقي ١٥٥ ، ٤٨٤

٢) الجاحظ : ك . م . ٦٢

٣) اطلب المصادر في كتابنا Yazid, 45, n. 3 ؛ ابن هشام : السيرة ٧٠٥ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٦ ، ٣ : ١٥٣ — ١٥٢ ، ١٩٤

٤) الجاحظ : البخلاء (Van Vloten) ٢٥٨

٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (de Goeje) ١٩٠ — اما في شأن نسبة ابن قتيبة للعرب وسيادة قريش فلتراجع رسالته المنونة « كتاب العرب » المطبوعة في « رسائل البلغاء » الطبعة الثانية ، نشر محمد كرد علي . ويبقى ان ثابت نسبة الكتاب لابن قتيبة .

هذا الهجو المؤلم اذاعه الشاعر في عهد معاوية الاول ، فدلّ على ما كان لا يزال واقرًا في اذهان العرب من ازدراء قريش ، على رغم ما اتاه ذاك الخليفة الكبير، بشخصيته الجذابة وبانتصاراته السياسية، في تقريب العرب من الاقرار بسيادة قبيلة . ومن ذاك العصر ايضاً اهجية اخرى للنجاشي في قريش منها هذا البيت الذي يفوق ما تقدّم ايلاماً ولذعاً :

وحُقّ لمن كانت سخينة قومه ، اذا ذُكر الاقوام ، أن يتنمّا (١

وهناك امر آخر كان يحطّ من شجاعة المكيين في نظر البدو ، هو ما أشرنا اليه من تعوّد القرشيين في الجاهلية الالتجاء الى مأجوري الاحابيش في الدفاع عنهم والمحاربة دونهم . وقد ذكر الرواة مقطعاً شعرياً مزدوج القائدة لانه يطلعنا على قدم هذه العادة في اتخاذ « الاحابيش » ، دالًا على انها ليست من الطرق التي لجأ اليها القرشيون مرةً مفردة او مرارًا قليلة ، في عصر قريب من الهجرة ؛ كما يطلعنا على تلك العاطفة المتأصلة في سكان البادية تجاه هذا المظهر القرشي : ذكر صاحب الاغاني المقطع المذكور ، واشار الى قدمه قائلًا :« هذا شعر هجوا به قديماً »(٢ ، وهو :

فضحتم قريشًا بالفرار ، وانتم تعدّون سودانًا عظامَ المناكبِ
فاما القتال ، لا قتال لديكم ؛ ولكنّ مهرًا في عراض المواكبِ

واذًا فلم يبقَ من شك في ان المكيين كانوا يستأجرون «السودان» الافريقيين في حروبهم ، سودانًا لا شك فيهم ، « عظام المناكب » . ولا يخفى ان هذا الوصف ذو قيمة جليلة لانه يطلعنا على ابناء حام فيحول بيننا وبين ما قد يتوهمه البعض ، اذ ينفون وجود السودان ويفسّرون « الاحابيش » بالعرب المسودّة وجوههم بتأثير شمس الحجاز ، او المنسوبين الى ما يتصوّره اللغويون من وجود جبل اسمه الحَبْش او الحُبْشي ... مما سنعود اليه . هؤلاء سودان يختلفون ، « بعرض المناكب » ، عن العرب المسوّدة وجوههم في مناطق الغور .

ولكن مَن كان بالحقيقة اولئك « الاحابيش » الذين ذكرناهم مرّات في

١) ابن قتيبة : الكتاب المذكور ، ص ١٦٠
٢) الاغاني ١ : ٣٠

الصفحات السابقة ؟ يحلّ ولهوسن المشكل بكل بساطة اذ يحكم ، بايجاز المعتاد ، انهم « حلفاء قريش السياسيون »؟[1] وهو قول «السيرة» ترجمه الى مدلوله العصري واقته الالمانية . على ان لفظ الاسم ، وما يثيره من تفكير بسكان الحبش ، يحولان بيننا وبين الايمان المطلق بالشرح التقليدي[2]. ولا يخفى ان اسم الجنس « حبش » يجمع على « أحبوش » و«أحبوش» يجمع على « احابيش »[3]. وكلتا اللفظتين تدلّ على السودان ، على سكان حدود اريترية . وكانت تشير في اوائل القرن السابع خاصة الى اولئك العساكر السودان المأجورين[4]. ذلك ان اقيال اليمن ، على الرغم مما تناقلوه ابّاً عن جدّ من التذكارات المؤلمة عن احتلال الحبش بلادهم ، كانوا يتخذون جسيم من رجال الحبش ، كما قدّمنا . حتى اصبح الامر زيّاً معروفاً يتبعه الامراء والسادة ، وقد كان من الدوافع اليه نفور العرب من الخضوع للنظام العسكري . فاصبح لكل بلاط في اليمن ، مهما كان حقيراً ، عدد من اولئك « الاحابيش » ذوي الحراب ، يقومون بما كان يقوم به في اوربة الحرس السويسري . ولنا في شعر ابي الطمحان صورة حية لهذا الحرس الاسود ؛ وابو الطمحان من جملة الصعاليك الشعراء المخاوين الذين عرفناهم بين اللاجئين الى مكة . ولا شك في انه خدم القرشيين خدماً تُذكر حتى

---

١) Wellhausen, *Reste arab. Heidentums*, 86, n. 3

٢) قابل بما ذكره كليان هوار في : Cl. Huart, *Nouvelles recherches sur la légende de Selmân du Fars*, p. 3 فقال : « الاحابيش . . . لا يسعنا الا ان نقارب بين هذا الاسم واسم الحبش »

٣) ابن دريد : الاشتقاق ١١٩ ؛ تاج العروس ٤ : ٢٩٣ ؛ Dozy, *Supplément*. I. 245 ويجمع ايضاً على « حُبْشان » الاغاني ٢ : ٦٨ . اما في قول ابن قيس الرقيات (ديوانه ص١٧٩ البيت الاول) : « رجال من الاحابيش » فان اللفظة تعني هنا البدو ، وسنرى سبب ذلك في ما يأتي .

٤) الاغاني ١٦ : ٧٣ ، ٧٥ ؛ الجاحظ : الكتاب المذكور ٧٠ ؛ ابن الكيت : تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ٥٢ وهو يورد قول العجّاج «أحبوش من الانباط»، واذاً فهو غريب عن العنصر العربي . وفي غير ذلك « الاحابيش » = السودان كما في الجاحظ : الحيوان ٣ : ١٦٧ ، وفيها يذكر خصيانًا من السودان فيقول : « فتيان من الاحابيش » ؛ وراجع ابن حبيب : رحلته ١٩٤ ؛ ابن بطوطة ١ : ٢٧٨

شرّفوه برتبة « الحليف »[1] . على ان مما يهمنا الآن شهادته القيّمة بشأن « الاحابيش » ، قال :

ولو كنت في ريمان يحرس بابه اراجيلُ أحبوشٍ ، وأغضفُ آكلُ
اذاً لانتني ، حيث كنت منيّتي ، يخبّ بها هادٍ بأمري ، قائفُ[2]

***

واذاً فان « احابيش » السيرة والحديث يؤلفون هذا الجيش الاسود ، وتكرن مكة قد حلّت مشكل تجنيد السودان[3] قبل اوربة المتمدّنة بثلاثة عشر قرناً . فلا عجب ان صادفنا في جيش القرشيين فرقاً من هؤلاء السودان ، ونحن لا نزال نسمع الكثير من شجاعتهم واعمالهم حتى في عصر العبّاسيين ، بعد ان نُظّم الجيش العربي في القرن الاول للهجرة[4] ، بساعي معاوية الكبير ،

---

١) كان حليفاً للزبير بن عبد المطلب الهاشمي ، وهو رجل لا نعرف عنه شيئاً .

٢) الاغاني ١١ : ١٢٣ ؛ البحتري : الحماسة (طبعة شيخو) الرقم ٤٤٠ . وراجع ، بشأن ريّان القصر اليمني ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ٢٢٤ ، وبشأن اراجيل ، وهو جمع رجال او رجالة ، ابن الاثير : النهاية ٢ : ٧٠ ؛ وبانت سُعاد (طبعة Guidi)١٦٦ — وفي حماسة البحتري فصل كامل (الفصل الثالث والخمسون) لا يشبه بيتي ابي الطمحان في ذكر الموت وشموله وادراكه الانسان حيث كان . وما أشبه قول الشاعر العربي بقطع مالرب (Malherbe) على لن يدل اللوفر بقصر ريمان ، والحرس السويسري بالاحابيش :

Le pauvre en sa cabane, où le chaume le couvre,
Est sujet à ses lois ;
Et la garde qui veille aux barrières du Louvre
N'en défend point nos rois.

راجع ، في ذلك ، فؤاد افرام البستاني : توارد الخواطر بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب (المشرق ٢٧ [١٩٢٩] : ٦٠٢-٦٠٣)

٣) اطلب في هذا الموضوع : *L'armée noire* dans la *Revue des deux mondes*, 15 Août 1912, p. 849-870

٤) الجاحظ : رسائله ٧٠ ، ٧١ ؛ الازرقي ؛ ١٩٤ ، وفيه ذكر لجنود من السودان في جيش الحجّاج محاصراً مكة ؛ البلاذري : انساب الاشراف (مخطوطة) ص b٦٩٧ . وهناك ذكر لشرطة من السودان في المدينة على عهد المروانيين ، الاغاني ٣ : ١١٣ ؛ والحرس اسود في حاشية خالد القسري ، ابن عساكر (طبعة مدرار) ٣ : ٤١٣

وبفضل تجنيد عرب الشام الذين كانوا قد الفوا نوعاً ما النظام الروماني . وقد دفعت هذه الذكريات الجاحظ الى تأليف رسالة ظريفة في « فخر السودان على البيضان » يُرخي فيها العنان لبلاغته وظرفه، فيدلّ على تفوّق السودان في الحروب خاصة على البيضان ، اي على العرب[1] .

ولنعد الى زمن الهجرة فنرى من مآتي « الاحابيش » فيه ان اهل مكة ، لما اسرعوا الى موقعة بدر ، لم ينتظروا تجييش « احابيشهم » . وكان ذلك ، كما قدّمنا ، من هفوات زعمائهم ارباب المصارف الذين لم يتمرّدوا الحروب . فكان انهم اكتفوا ببعض الرجال من الجيش انفسهم خرجوا « يتقاذفون بالحراب » كما يقول الواقدي[2] ، ونحن نعرف ان الحراب سلاح الاحباش العادي[3] . ولا يخفى ان الحُبش هنا لا تفيد العبيد ، فان المكيين كانوا ابعد من ان يسلّموا عبيدهم السلاح . وكذلك القول عن وَحشي الاسود قاتل حمزة ، وابن الاثير يعدّه « من سودان مكة »[4] ، وقد كان دون شك من ارذل الجنود الذين الفوا مهنة الحرب ، وكان يستعمل الحربة كغيره من ابناء جلدته « وقلّما اخطأ بها شيئاً » ، على قول الواحدي[5] . وقد شاء ابن هشام[6] ان يخرج وحشياً من المعركة ، بعد قتله حمزة ، ليوهم ان السودان لم يكونوا يحاربون كعسكر منظّم . ولكن لا مستند لقوله . بل اننا نرى وحشياً يحارب حتى في عهد ابي بكر ، فيشترك في حرب مسيلمة وليس لنا ما يدلّ على انه كان

---

١) طُبعت الرسالة في مجموعة من ثلاث رسائل : « مناقب الترك ، فخر السودان على البيضان ، التربيع والتدبير » وقد اهتمّ بطبعها Van Vloten ، فظهرت بعد وفاته ، سنة ١٩٠٣

٢) الواقدي (Kremer) ٢٢

٣) ابن هشام : السيرة ٥٨٢ ؛ الطبري ١ : ١٣٨٥ في كلامه عن وحشيّ : « يقذف بحربة له قذف الحبشة » ؛ المسعودي : الكتاب المذكور ١ : ١٨٧ ، ١٨٩ ؛ وراجع بيت لبيد المذكور سابقاً ، ص ١٠

٤) الطلب ترجمته في اسد الغابة ٥ : ٨٣

٥) الواحدي : اسباب النزول ٢١٥-٢١٦ ؛ والطلب ، في مهارة الاحباش بالجراز واستعمال السيف والترس ، صحيح مُسلم ١ : ٢٢٨ ، وصحيح البخاري ١ : ١١٦ ، ١١٧ ؛ ٣ : ٣

٦) ابن هشام : السيرة ٥٦٤

وحيداً من ابناء جلدته ؛ بل اننا لا نخطئ اذا اعتبرنا كلّ الحبش الذين حاربوا في صفوف قريش ، في بدر وأحد ، من اولئك « الاحابيش » النظاميين ؛ فحالفنا بذلك اقوال مؤرخي المغازي ، وكلهم يضنون على السودان بهذه الصفة ، فلا يرون فيهم الا عبيداً غايتهم الهاء سادتهم بالعاب السيف والقرس ، كما كانت تلهيهم بالغناء تلك الجواري اللواتي كان يشتريهن تجار قريش بالثمن الغالي . حتى ان كتب الحديث تذكر لنا في المدينة بعض الحبشان يسألون عائشة لاعبين بالسيوف . اما نحن فيمكننا ان نرى في اولئك العبيد السود فوق ما يريد ان يراه ارباب الحديث ، فلا نتراجع عن السؤال : أو لم يكن حبشان المدينة المذكورون من حرس النبي الاسود ؟

ولنتقدّم في ذكر النصوص القديمة في الحبش والاحابيش . ذكرت السيرة انه كان في معركة أحد « احابيش وعبدان اهل مكة »[1] . ولا يخفى ان واو العطف لا تفيد هنا التفرقة بل الشرح . فنتج ان « الاحابيش » المذكورين لا يمكن ان يكونوا الّا من اهل الحبش ، وهو معنى « العُبدان » ايضاً . وذلك ان الاكثرية الساحقة من الرقيق في بلاد العرب الغربية كانت من السودان في هذا العهد . وقد مال بعض العلماء المسلمين الى هذا الشرح منذ اقدم العصور . فتخيلوا ، في ما تخيلوه من شروح لاسم « الاحابيش »[2] ، ان هؤلاء المحاربين سُمّوا كذلك « لاسودادهم »[3] . كلّ هذا يدفعنا الى الاستنتاج ان الاحابيش كانوا من عنصر افريقي ، وكانوا يؤلفون كتائب سوداء ، في الجيش العربي ، وما اشبهها بكتائب السودان في الجيوش الاوربية اليوم ، بكتائب « العسكر » الاريتري في الجيش الايطالي ، وقد كثر الكلام بشأنها في يومنا هذا . يسمّي الايطاليون هؤلاء الجنود الافريقيين (askari) من لفظ المفرد عسكري . ومن

---

١) ابن هشام : السيرة ٥٦١–٥٦٢ ؛ الواقدي : ك . م . ٢٢١ ، ٢٢٨–٢٢٩ ، يذكر « عبيد قريش » (من السودان) يحاربون في أحد ، وبينهم وحشي ، ومهجع ، ومهراب . وسنعود الى ذكر هذا الاخير .

٢) ابن الاثير : النهاية ١ : ١٩٦ ؛ واطلب ما سيلي من الشروح اللغوية للفظة .

٣) تاج العروس ٤ : ٢٩٣

غرائب الاتفاق ان اللفظة نفسها: «عسكر»، «عساكر»، كانت تدل، في عرف العرب الاقدمين، على المحاربين المأجورين، بخلاف من كانوا يقاتلون في سبيل الذود عن قبيلتهم ومنازلهم. هذا ما يظهر من قول قيس بن الخطيم، الشاعر اليثربي، المتوفى قبل الهجرة بسنوات قلائل[1]. ولعله فكر، في قوله ذاك، باختلاط البدو والسودان اللاحقين بالجيش القرشي، ملتمحاً الى ان قومه آنف من ان يقبلوا معاونة «العسكر» المأجور؛ ولا نزال مبالغين في استنتاجنا هذا، اذا ما انتبهنا لتلك المنافسة الدائمة بين المدينتين: مكة ويثرب!

***

بيد ان ما توصلنا اليه من نتائج بشأن المكيين واستعانتهم «بالاحابيش»، وباصل هؤلاء ومركزهم من الجيش القرشي، لأبعد من ان يُقرّ به التقليد الاسلامي المستند خاصة الى حوادث «السيرة» و«المغازي»، وكلها متأثرة بالرأي العام الاسلامي، على عهد العباسيين، من سيادة قريش، وشجاعتها، وتقدمها في كل شيء منذ العصر الجاهلي. ولا غرابة في الامر. فان ما يُنسب الى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[2] وغيرهما من كبار القرشيين، قادة الفتوح العربية، لا يتفق وما ذكرناه من ميل قريش عن الحرب والكفاح الى التجارة وتدبير الاموال، وما يتبع ذلك من تأصل الحذر والخوف الدافعين الى الجبن. ولا يخفى ان هذه الصفات تُلقي ظلاً من الشك يخفف من ايمان تلك المآثر الاسطورية المنسوبة الى علي وحمزة[3] وغيرهما من ابطال «المشاهد» او معارك الجهاد الملحمية. واننا نكتفي الآن بالاشارة الى هذا التناقض. على ان قدماء المؤلفين انفسهم لاحظوا شيئاً من ذلك، فحاروا في تعليل تلك الاعمال الخطيرة المنسوبة الى العبيد من السودان، فاخذوا يخرّجونها على طرق متنوعة،

---

١) راجع ديوانه (Kowalski) ١٨: ٢.

٢) كان عمرو، قبل هجرته الى يثرب، ينفق كل وقته في اعمال التجارة والمناقشات المالية والادارية.

٣) يذكر عن حمزة انه قتل بيده، في يوم أحد وحده، ٣١ رجلاً (اسد الغابة ٣: ١٨٥). اما علي فراجع ملخص مآثره في اسد الغابة ٤: ١٦-٢١.

منها ما توفقوا فيه ، ومنه ما ظهر تكلفه وتعمله . من ذلك انهم جعلوا « احابيش » مكة يلتحقون ، في يوم أحد ، باليثربي ابي عامر الراهب[1] . فاصابوا هدفين : علّلوا شجاعة الاحابيش بطريقة لا تنال من شجاعة قريش المزعومة ، وعملوا على خفض شأن السيد النصراني وقد غدا مكروهاً في نظر التقليد المدني لانه فضّل استقلاله الشخصي على الخضوع للنظام الشديد الذي سنه النبي في المدينة . وهناك رواية ثانية عملت على انكار شجاعة الاحابيش انكاراً تاماً ، فزعمت ان قريش منعتهم الاشتراك في المعركة ، وتركتهم يحفظون الاعتدة والامتعة[2] . وكلها محاولات تنمّ عن حيرة الرواة الاقدمين . والغريب انها لم تلفت نظر علماء المستشرقين قبل عهدنا ، فظلّوا مدة على اعتقاد ولهوسن يكون « الاحابيش حلفاء قريش السياسيين » .

هكذا يحاول الرواة ومؤرخو المغازي الحطّ من عمل الاحابيش في موقعة أحد ، وفي غيرها من المواقع ، ليظهروا شجاعة قريش ، حتى في زمن كانت لا تزال فيه على شركها ، فتتاوى النبي وتكسر جنوده وانصاره كما حصل في موقعة أحد نفسها . على ان التاريخ ينسب هذا الانتصار لشجاعة الاحابيش وكثرة عددهم في الجيش المكي . ولكن لا بأس بذكر شيء من تلك المحاولات ، سواء أكانت في تخفيف وقع الانكسار على النبي وانصاره ، ام في الاشادة بشجاعة القرشيين المنتصرين . ولا يخفى ان موقف مؤرخي المغازي هنا على غاية من الدقة والحرج ، فهم في حيرة مزدوجة ، ولا مصادر لهم في الحقيقة الّا ذاك الشعر القليل الراقي الى عهد الحوادث او الى ما بعدها بقليل . فكان لا بدّ لهم من استغلاله ، الا انهم لم يصرّحوا بهذا الاستغلال ، بل عرضوا ما استفادوه من الشعر ، كأنه معلومات مستقلة ، ثم اتوا بالابيات المستقلّة شواهد عليها . بيد ان النقد الحديث كشف الستار عن هذه العملية ، اذ تحقق وهن معلومات السيرة حيث لا شعر يسندها ، ولاحظ توافق معلومات السيرة والشعر القديم في مواضع النقص والاهمال . اما في ما يهمنا من موقف قريش والاحابيش انفسهم

١) اطلب هذا الاسم في فهرس ابن هشام : السيرة ؛ السهودي ١ : ٢٠٣

٢) الواقدي ٢٢٧ ؛ الاغاني ١٤ : ١٢

المعركة ، فان حسان بن ثابت ، الشاعر اليثربي ، ذكر ان لواء قصيّ ، جدّ القرشيين في مكة وواضع دستورهم ، نُقل من واحد الى واحد في معركة أُحد حتى قُتل من حَمَلته عشرة رجال[1] . فأسرعت السيرة الى تدوين هذا الحادث ، وفيه تظهر شجاعة قريش . ولقد كاد اللواء يؤخذ ، بعد مقتل هؤلاء العشرة ، لولا ان تقدّمت امرأة من اللواتي كان القرشيون قد اتوا بهنّ الى المعركة « لئلا يفرّوا »[2] ، واسمها عَمْرة الحارثية[3] ، فخاطرت بنفسها ورفعت اللواء . وهذا ما يشير اليه حسان بقوله :

... فلولا الحارثيةُ ، اصبحوا يباعون في الاسواق بيع الجلايب[4]

وهو لا يدع تلك الفرصة تفوته ، فيحمل على القرشيين ويعيّرهم بان رجالهم لم تطق حمل اللواء ، لان اللواء لا يحمله الا « الاشراف المرقون » وهو معنى « النجوم » في قوله :

لم تُطق حملَه النواتُ منهم ؛ انما يحمل اللواءَ النجومُ ! [5]

ومهما يكن من تلميحات السيرة ، فان السودان ، فضلًا عن وحشي ،

---

١) حسّان : ديوانه ٥ : ١٧ ؛ الواقدي ٢٢٢

٢) الطبري ١ : ١٣٨٥ ؛ ابن هشام : السيرة ٥٥٧ ؛ السهودي ١ : ٣٠٠

٣) تجد نسبها في الواقدي ٢٠١

٤) ابن هشام : السيرة ٥٧١

٥) الديوان ٥ : ٢٢ ؛ وشرحه ، ص ١١ — ولا بأس بايراد عدد من ابيات هذه القصيدة ، فتدلّ على روح حسّان الهجائية ونفسه على قريش ، كما تشير الى المقطع الذي استقى منه مؤرخو « السيرة » ، في وصف تلك الحادثة . قال مخاطبًا بني عبد الدار بن قُصَيّ ، وهم من المشركين ، يومَ أُحُد :

ولي البأس منكم ، اذ مضرّم ، أسرةٌ من بني قُصَيّ ، صميمُ .
تسعةٌ تحمل اللواء ، وطارت ، في وعاءٍ من القنا ، مخزومُ .
لم يُولّوا حتى أُبيدوا جميعًا في مقامٍ ، وكلهم مذمومُ
بدمٍ عاتكٍ ، وكان حفاظًا أن يُقيموا ، ان الكريم كريمُ !
واقامرا حتى أُزيروا شَعوبًا ، والقنا في نحورهم محطومُ ،
وقريشٌ تلوذ لنا لواذًا ، لم يقيموا ، وخفّ منها الحلومُ ؛
لم تطق حمله النواتُ منهمْ ؛ انما يحمل اللواءَ النجومُ !

قد اشتركوا في معركة أُحد . وها ان احدهم صُؤاب الحبشي[1] ، يتناول اللواء اخيرًا فيحميه حتى يُقطع عليه . ولم يغفل حسان عن هذا الامر ، فاستغله على طريقته من هجو القرشيين بذلك الاسلوب اللاذع ، فقال :

جعلتم فخركم فيه لعبد ... من الشم من بطا عَفَر التراب[2]

من الحقّ ان حسان مر الهجاء ، لاذع اللسان ، وافر الفحش[3] . ولكنه يبذل جهده في تخريج انكسار قومه في أُحد ، وبالتالي فشل المسلمين . وما كنا لنلومه في هذا الاجتهاد . اما الغريب فهو ان تكتفي السيرة بجلّ ابيات حسان مقتنعةً بمعلوماته وحدها في تأريخ الحوادث ، فتذكرها دون اسناد ، او باسناد غامض لا قيمة له كقولها : « حدّثني بعض اهل العلم »[4] . بيد اننا لا نأسف لهذه السذاجة التي تطلعنا ، من حين الى آخر ، على طرق السيرة في جمع الاسانيد ونقد المعلومات ، فترفع ما قد يعلق في ذهننا من شكّ في سياسة القرشيين النفعية ، وعدم تعرّضهم ، ما امكنهم ذلك ، لمخاطر الحروب .

وقد شعر البدو ، منذ القِدَم ، بهذه الصفات في اهل مكة ، فعبّروا عنها باسلوبهم الشائق ذي الصور الفطرية ، مشبّهين قريش بالضبّ ، لانها تتراجع فتحتمي بالحرم اذا ما احسّت بالخطر ، كما فعلت في اوائل حرب الفجار ، وذلك قولهم : « سُمّي قريش البطاح الضبّ للزومها الحرَم »[5] . « وقريش البطاح » ، تعني سكان اوساط مكة ، وهي احياء السراة من كبار الراسمالين ، مقابلةً

---

١) وقد شاء بعض المؤرخين ارضاء الجميع ، فجعلوا صؤاب المذكور عبدًا لبني عبد الدار ، حملة اللواء الرسميين (الواقدي ٢٢٥ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٧٠) . على ان السيرة لا تذكر كيف انتقل اللواء من حُمرة الى صؤاب . وانّى لها ذلك ولا مصادر لديها الا بيت حسان المذكور (السيرة : ٥٧٠-٥٧١ ؛ ٦١٠) ، فحيثما كثر الشعر القديم زادت معلومات السيرة ، والضدّ بالضدّ .

٢) الديوان ٢٠٠ : ٢

٣) حتى أن ابن هشام يحذف عددًا من ابياته بسبب اقذاعها (السيرة : ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨١) .

٤) ابن هشام : السيرة ٥٧٠ . اما الواقدي فيحذف هذا الاسناد في سبيل ايجاز روايته .

٥) البلاذري : الانساب ، المخطوطة المذكورة ، ورقة ٢٢ قفا .

« بقريش الظواهر »[1] . وكذلك الكلام عن اهل المدينة من الانصار ، وهم اخيز من غيرهم بالقرشيين ، واقلّ تلطفاً في نعتهم ، اذ كانوا يشبهونهم بالعجائز الصُلع في جبنهم وضعفهم في مواطن القتال[2] . حتى ان يهود يثرب انفسهم تنبأوا النبي كي لا ينتصر بانتصاره على قرشيّ مكة لانهم «اغمار لا يعرفون القتال»[3] . ولقد ازداد احتقار اليثربيين لاهل مكة ، دون شك ، كما يُستنتج من احتجاج النبي امـام الانصار ودفاعه عن شجاعة قريش[4] ، كما دافع ايضاً عن جَلدهم ، امام انصاره المدنيين انفسهم[5] . ولا بأس في ان نذكر من جملة تلك المنازعات بين القرشيين والمكيين ، ما وقع لحسّان بن ثابت ، والحرث بن هشام المخزومي . وقد فرّ هذا في وقعة بدر ، فهجاه حسان وعيّره جبنه وفراره . فلم ينكر الشاعر — وقد كان الحرث شاعراً — ولم يجد غير هذا العذر دفاعاً عن موقفه ، بل فراره المخجل ، قال :

وعلمتُ اني ، ان اقاتلْ واحداً أُقتَلْ ، ولا يضررْ عدوّي مشهدي[6]

أو هناك اوضح من هذا الاقرار بجبنه وجبن قومه ، وفرارهم جميعاً ؟ على ان هذا البيت المشؤوم ، الذي لا ينتهي جمّاع المنتخبات الادبية من الاعجاب به[7] ، لم يمنع الشاعر المخزومي من التمتع باحترام عشيرته ؛ فعندما اراد هجر مكة ، لعشر سنوات مرّت بعد الحادثة ، ودّعه سكانها وداعاً قلّ ان يحدث مثله ، فشيّعوه والحسرة في قلوبهم ، والدموع بعيونهم حتى « لم يُرَ يوم كان اكثر

---

١) اطلب اسد الغابة ٣ : ١٧٢ ؛ Lammens, *La Mecque*, 53...

٢) قابل بايات كعب بن مالك في يوم بدر ؛ ابن هشام : السيرة ٥٢٨ ؛ ابن الاثير = النهاية ٢ : ٢٧٣

٣) ابن هشام : السيرة ٢٨٢ ؛ الواقدي ١٧٨ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٧٠

٤) الواقدي : ١١٠ ، ١٧٨

٥) اسد الغابة ٣ : ٢٧٣

٦) ديوان حسان ٣ : ١١ ؛ ١٥١ ؛ ابن قتيبة : المعارف (الطبعة المصرية) ٩٥ ؛ ابن هشام : السيرة ٥٢٢ ؛ ثم ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٦٦

٧) راجع العقد ٤ : ٤٣

باكياً وباكيةً »[1] . ولا شكّ في ان اولئك الرجال تدارسوا بعضهم بعضاً ، فتفاهموا ، وتساعوا ما قد يعدّه غيرهم من مخازي الرجولية . يؤيّد ذلك ان النبي نفسه شعر بالحاجة الى تحليفهم اليمين كي لا يفرّوا في الحديبية[2] . كلها اسباب دفعت مؤلفي السيرة وارباب التأريخ الرسمي الى العمل على اخفاء بعض هذه المخازي ، متناسين مقاومة قريش المستطيلة للنبي ، مجتهدين في سدل الستار على مظاهر جبنهم ، واتقائهم مخاطر الحرب ، يوم أُحد ، باحابيشهم وعبدانهم . وهل من حاجة الى المراجعة واقرار الترادف بين هاتين اللفظتين ؟ انْ يكن الاحابيش « حلفاء قريش السياسيين » ، على ما يريد ولهوسن ، فاي معنى محقّر في اسمهم ، وكيف صارت اللفظة « احابيش » من اقذع الشتائم واقبح النعوت كما نراها في فم نابغة الهجاء حسّان ، وهو من اعرف ابناء عصره بقيمة الالفاظ الهجائية ، ومواضع السباب ، اذ نراه لا يتردد في استعمالها ، عندما اراد هجو بعض اعداء النبي ، من البدو ، فقال :

انتم احابيش جُمّعتم بلا نسب[3]

هذا السهم الدقيق المسدّد يقع دون الهدف ، وبالتالي فلا يحلق بحسّان ان يريشه ، اذا فهمنا « بالاحابيش » ما يقصد المحدثون ان يفهمونا اياه من كونهم « حلفاء قريش السياسيين ! » وهم لا يتعبون هذا التعب الا في سبيل تخليص قريش من عار الالتجاء الى عبدان اجانب عن العرب . فتراهم يتمثلون للفظة « احابيش » ، شروحاً تُرضي السيادة القرشية ، معلنين بان قوم ابن جدعان ، وابي أُحيحة ، وابي سفيان ، كانوا يلجأون الى جيرانهم البدو ، الى الحلفاء ، الى اللصوص من أسلم وغفار . ولا بأس في ذلك ما دام هؤلاء من العرب . وهو ما تفهمه السيرة بلفظة « احابيش » . أوَ لم يقرّ معاوية الكبير هذا

---

١) والشعر من القوالب التي يردّدها الحديث مثلات المرثات . اغاني ١١ : ١٥٢ ؛ السهيلي ١ : ٢٢٧ ؛ ٢ : ٩٠-٤ ؛ *Le Berceau*, I, 196

٢) اسد الغابة ٣ : ٣٦٥

٣) الديوان ٦١ : ٢

الحادث ، وهو اشهر مَن يمثل العلم السياسي عند العرب[1] ، فهنأ البدو على محاربتهم في سبيل قريش[2] . وقد كان خليقاً بهذا السياسي الداهية ان يتكلم بما شاءت له مهارته البليغة . على انه لم يتوصل الى اقناع شعراء البدو ، وفيهم من كان يجمع السذاجة الظاهرة الى دقة الملاحظة وتفهم حقيقة الامور ، فيقول:

تولّت قريشٌ لذّة العيش ، وانثنت بنا كلّ فجٍّ من خراسان ، اغبرا (٣

هذا في الاسلام ، وقد اخذت الامبراطورية العربية تنشر السيادة القرشية بانتشار اعلامها وجيوشها . اما قبل الفتوح فلم يكن البدو ليصبروا على ادعاء القرشيين ، ولا ليحترموا « سخينة » . وشاهدنا ذاك الشعر الجاهلي الذي يفتخر فيه اربابه بانتصارهم على اهل مكة ، ويحملهم على « سخينة » حملات لم يوقفها الا الليل ومنطقة الحرَم . وقد ذكرنا شيئاً من هذا الشعر في ما تقدّم . ولا بأس باعادة بعضه . من ذلك قول خداش بن زهير :

يا شدّةً ما شددنا ، غير كاذبةٍ على سخينة ، لولا الليل والحرَمُ ! (٤

بيدَ ان بني غفار لم يكونوا ليحترموا الحرَم ، كما تقدّم لنا فذكرناه في اول هذا المقال . اما غيرهم من البدو فكانوا يتجاوزون ذلك في ذكر شجاعتهم وبطشهم بالقرشيين ، فيقولون ما قال عبدالله بن همام :

اذا لقيتُهم حتى يعودوا لمكة يلعنون بها السخينا (٥

---

١) اطلب كتابنا *Mo'âwia* ، واستنتاجاتنا في *Berccan*, I, 332-334

٢) العقد ٣ : ٤١ — كان النبيّ افضل من يمثل الشجاعة المكية ، في نظر المسلمين ؛ النبي ثم ابو بكر ، وقد ظهر كلاهما في الدريش ، اي الخيمة من ورق الشجر ، في بدر ، يراقبان تطورات المعركة ، ويصدران الاوامر عن بعد (اسد الغابة ٣ : ٢١٣) . حتى ان الملك جبريل لام النبي بكل بساطة ، فقال : « انت في الظلّ ، واصحابك يقاتلون في الشمس ؟ » (اسد الغابة ٥ : ١٦٦) .

٣) ابو تمام : الحماسة (Freytag) ٦٦٧ ؛ قابل بابيات عمرو بن معديكرب : (الاغاني ١٤ : ٤٠) . وفي اسد الغابة (٣ : ٢٨٠) ، ان البدو « مادة الاسلام » ، راجع *Berccan*, I, 332

٤) الجاحظ : البخلاء ٢٥٨ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٦ ؛ العقد ٣ : ١٢

٥) الجاحظ : البخلاء ٢٥٨ ؛ Yazîd, 46 — وهناك بيت في هجو « سخينة » اورده صاحب الاغاني (١٥١ : ٣٦) وهو :

همّت سخينة ان تغالب ربّها ويأبى فعال الغالب الغلاب

واننا لنخطئ اذا صدقنا هذه الاقوال ، كما هي . ولكن مهما كان فيها من المبالغة ، فان القرشيين كانوا ، في العصر الاسلامي ، يشعرون بشدة وطأة تلك التذكارات القديمة ، وبعدم توافقها والسيادة الحالية على العالم العربي. فكان لا بدّ من محوها شيئاً فشيئاً ، والدليل على ان تبدل بها سيادة قرشية تستند الى اقدم العصور . هذا ما كان من واجبات المؤرخين الرسميين ، وهم يكتبون تحت مراقبة خلفاء بغداد ، اشهر من يهمهم هذا الابدال.

***

ولنعد الى الاحابيش او العساكر السود. فكر النبي ، بعد فتح مكة ، بالسير على بني هوازن. فنصحه ابناء وطنه ان يستخدم ، في ذلك ، الحُبشان واكثرهم من رقيق بني مخزوم[1]. واذاً فقد كان هذا النوع من التجنيد معروفاً. على ان النبي اجاب ، كما يزعمون ، بقوله : « لا خير في الحبش ؛ ان جاءوا سرقوا ، وان شبعوا زنوا »[2] . واي حكم اوضح من هذا ، واشدّ وقعاً ! وكيف لنا بالبرهان على شجاعة القرشيين المشركين ، الذين كُسروا في بدر ، والخندق ، ويوم الفتح ، وكانوا يدفعون بالعسكر المأجور ليحارب عنهم ، حتى انهم حضروا وقعة حنين حضورَ المشاهدين ليس غير ولم يخطئ الانصار اذ وصفوهم فقالوا: « كثير شحم بطونهم ». وهي صفة رجال الاعمال المستقرّة ، والتجارة المطمئنة ، لا رجال الكدّ والسفر والحروب. وهناك مشكل جديد يقتضي بعض الشروح . وهو ان النبي نفسه الذي يحكم الحكم الشديد على الحُبش في هذا القول فينفي صلاحهم للحرب، يمدح ، في قول آخر ، خالد بن الوليد لانه وقف « رقيقه في سبيل الله »[3] ، اي في سبيل الجهاد ، في سبيل الحرب المقدسة . ولم يكن رقيق خالد ، وهو مخزومي ، الا من اولئك العبيد . لان الرقيق

---

١) الاغاني ١ : ٢٢

٢) الاغاني : الموضع نفسه ؛ والسيوطي : الموضوعات ١ : ٢٢١

٣) ابو عُبيد : غريب الحديث (مخطوطة كوبريولو ، استانبول) ، ص ١٠ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ٢٠

الابيض كان نادراً في مكة آنذاك[1] . ومهما يكن من امر ، فان المؤرخين الرسميين لا يرضون ، بحالٍ من الاحوال ، ان يخلط بين هؤلاء السيد الحبشان « وأحابيش » قريش . وهم يزعمون ان « الاحابيش » ، بدو من قبائل تهامة ، وقبائل جنوبي الحجاز ، من كنانة[2] وخزاعة . واذاً فهم عرب خُلَّص[3] ، كانت قريش ، استناداً الى معاهدات ومحالفات سابقة ، تستدعيهم للاشتراك معها في الحروب . وهذا معنى ما يوردونه من اقوال عن قريش وانها كانت « تستجلب العرب في بواديها »[4] ، واحياناً كانت تستأجر حياً كاملاً من قبائل العرب[5] .

اما من لا يكتفي بهذه الشروح الواضحة في نظر المؤرخين الرسميين ، فلا يستحق الجواب الشافي . على ان هناك مشكلاً لم يُحلّ ، وهو الشبه القريب بين لفظ « الاحابيش »، واسم سكان حدود الاريتره الغربية . وهنا اخذت مخيلات لغويي العرب بتوليد الشروح والمشابهات المتنوعة ، ولا شيء يسدّ تلك المخيلات في سبيل الشرح والتعليل . فكلما غرب اللفظ غرب شرحه وبعُد استخراجه . يسهّل ذلك ما في اصول اللغة من مرونة ، وما في تصاريفها وصيغها من لين وتنوّع . فكانت النتيجة ان من يشرح لفظ « الاحابيش » بقرابته مع « الحَبَش » و« الاحبوش » يضلّ ويضلّل . أوَ ليس في اللغة فعل « تحبّش »

---

١) راجع الاغاني ١ : ٣٢

٢) قابل بشطر يورده ابن هشام : السيرة ٧٠١ ، لشاعر مكي معاصر :

جمع من كنانة غير عُزْلِ

٣) ابن قتيبة : المعارف (طبعة مصر) ٢٠٧ ؛ العِقد ٣ : ٤٧ ؛ الازرقي ٧١ ؛ البكري : معجم ٢٦٣- ٢٦٤ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ١١٩ ؛ ياقوت : معجم (طبعة مصر) ٣ : ٢٤١ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٦ . وقد ذكر ميل خزاعة الى محالفة محمد منذ الهجرة خاصة ، الواقدي ٢٢٩ ؛ الطبري ١ : ١٥٢٥

٤) الواقدي ٢١١ ؛ وقابل بقول حسان المذكور املاه :

انتم احابيش جُمعتم بلا نسب !

٥) الواقدي ٢٦٢ – اربما ان نرى الاحابيش في اولئك الشذاذ من « اوباش واتباع قريش » ، الذين قاوموا خالد بن الوليد ، يوم الفتح ؟ الطبري ١ : ١٦٢٥ ؛ الحازمي : ناسخ ومنسوخ ١٥٤ ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ١٩ – وعلينا ان نشير هنا ان مادة « الاحابيش » غير موجودة في دائرة المعارف الاسلامية !

بمعنى « اجتمع » ، يعززه عدد من اقوال الائمة ونصوص القدماء[1] ؟ واذاً « فالاحابيش » غير سكان بلاد الحبش . يُسلّم اللغويون والمؤرخون بانهم من العسكر المأجور الذي كانت تستخدمه قريش ، لانهم لا يمكنهم انكار كل الحقائق التاريخية . على انهم يتراجعون امام الفكرة بان قريش استعانت بالحبش . فيجعلون الاحابيش من العرب ، تحالفوا مع قريش ، قديماً[2] ، فكانت تستعين بهم لتعبئة جيوشها[3] . اما اسم « الاحابيش » الذي يُطلق على هؤلاء العساكر فيشتقه اللغويون من اسم جبل حبشي الذي تحالفوا عنده . وهذا قول ابن دريد عنهم : « حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يقال له حبشي فسموا الاحابيش »[4] . اي شرح ابسط من هذا ، واقطع للسؤال والاستيضاح والنقد . على ان النقد لا يؤمن بهذه البساطة ، فيسأل : ولماذا سار المكيون بعيداً ، فتشوا عن موضع لاجراء ذلك التحالف ، خارجاً عن حرمهم ؟ ولا يخفى ان المعابد كانت كثيرة في مكة ، ويقول الحديث ان العرب كانوا يقدمون اليها من جميع انحاء بلادهم ، بل من الشام والجزيرة ليعقدوا محالفاتهم او ليجددوها[5] ولا يمكن القول ان موقع الجبل اختاره « الاحابيش » انفسهم واضطروا قريش الى قبوله . فان اولئك المعاهدين ، في نظر الرواة ، كانوا من خزاعة ومن كنانة . ويظهر ان بعض المؤرخين شعروا بامكان هذا الاعتراض ، فحاول اليعقوبي التخلص منه واضعاً في فناء الكعبة مكان حِلف الاحابيش[6] . ولاشكّ

١) اطلب ابن السكيت : تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ٥٣ ، ٧٠٦ ؛ ابن قتيبة : المعارف ٣٠٢ ، نقلاً عن حماد الراوية ؛ حسان بن ثابت : ديوانه ٦٣ : ٢ ؛ وابن هشام : السيرة ٢٤٦ ، ٣ : ٨٠

٢) اطلب رواية نقلها صاحب الاغاني (١٦ : ٦٦ ، ٦٧) ، ولكنها غير قديمة ، وعليها مسحة الوحي السامي .

٣) وهو معنى « استأجر » الواردة في كثير من النصوص القديمة . اطلب الاغاني ١٨ : ٢١٢

٤) ابن دريد : الاشتقاق ١١٦ ؛ ابن هشام : السيرة ٢ : ٨٠

٥) ابن سعد : الطبقات ١ : ٤٤ ، وهكذا يسهل المحدثون على جرّ قبائل كلب وتغلب الى مكة احياناً . . .

٦) اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٧٨ ، ١٧٦ . وقد استند التاريخ الى الشعر على طريقته المعروفة . قابل بما في ابن هشام : السيرة ٥٥٦ ، وهو يذكر المطيم . « والمطيم » مبرد لم تتفق هويته بعد .

في انه بهذا الوضع اولى الحلف روعة دينية لم تكن له. ولكنه ، بجذفه جبل « حبشي »، افسد على اللغويين شرحهم واجتهادهم في تخريج اصل « الاحابيش » من غير سكان الحبش. . .

بيد ان هؤلاء لم يتنازلوا عن جبلهم «حبشي»، بل ظلوا متمسكين به، على حيرتهم واضطرابهم في وضعه من تلك الارض . وهو بحث سنعود اليه، فيزيد معلوماتنا عن اصل « الاحابيش »، في جزء مقبل من « المشرق »، ان شاء الله !

الارز